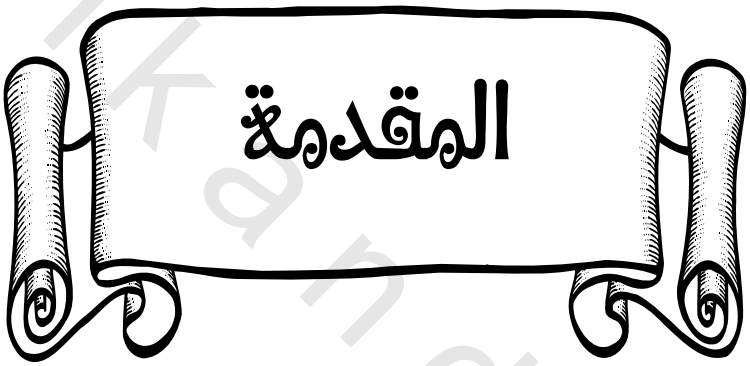

obeikandl.com

obeikandl.com

إن الحديث عن الحركية الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع التونسى فى القرن التاسع عشر يعكس تفاعلات أطراف متنوعة وأدوار مختلفة اضطلعت بها القبيلة - المدنية - الزاوية والسلطة. وهذه الرموز المختلفة شكلت جملة من العلاقات المحورية والفرعية، تتفاوت مؤثراتها حسب الأبعاد الرمزية والمادية. فالعرف والشرع والقانون دلالات مختلفة لمرجعية اجتماعية متجانسة ومتكاملة. كذلك الحرفة والأرض والدولاب[1] تشكل بدورها محددات السيادة والولاء للعشيرة والعائلة والوطن.

وعلى هذا الأساس لا يمكن دراسة هذه الخصوصية الاجتماعية حسب مقولات المنهج الاجتماعى (والسوسيولوجى) الأوروبى[2] وتقييم مظاهر الحركة والتفاعل حسب معايير التقدم والتخلف. كذلك لا يمكن إخضاع المنظومة الاجتماعية فى القرن التاسع عشر إلى التعليلات الخلدونية فى القرن الرابع عشر. فالاجتماع البشرى ليس سيرورة سرمدية ثابتة بل هو متحول ومتطور. وعملنا فى هذا البحث يتنزل فى إطار رصد مختلف "ديناميات" أى تفاعلات المجتمع التونسى فى القرن التاسع عشر بمختلف شرائحه البدوية والمدينية لتأكيد ملامح الحراك فى مختلف مظاهر الحياة الفردية والجماعية. ومعلوم أن نفى الحراك الاجتماعى والسياسى عن المجتمع التونسى هو فى

---

1 - الإعانة على الحرث والبذر تدعيما للحملة الاجتماعية داخل العروش.

٢ - بعض المستشرقين لا يتكلمون عن الأمم والشعوب الإسلامية بل يستعيضون عن ذلك بالحديث عن العشائر، ولا عن القيم الأخلاقية الإسلامية ولكن عن العادات، ولا عن الإيمان الإسلامى وإنما عن المعتقدات، ولا عن الفن الإسلامى وإنما عن الفلكلور.
انظر عبد الوهاب بوحديبة: لأفهم فصول عن المجتمع والدين ص ١٠٩.

الواقع نفى لحضور كيان مجتمع ودولة. وإلغاء لأى شكل من التواصل بينهما. فتصبح فرضية الاحتلال أو الاستعمار عاملا أساسيا من عوامل التغيير للمجتمعات التقليدية. وكأن قدر هذه المجتمعات فى التطور لا يكون إلا من خارجها. وهكذا بدعوى الجمود والسكون والتخلف يتم القضاء على حركية المجتمعات التقليدية وتحطيم آلياتها الداخلية.

ولتجاوز منطلقات هذه الفرضيات وتعليلاتها المختلفة، وتأكيدا لموضوعية التحليل والبحث أطرح الأسئلة الإشكالية التالية:

- هل البداوة فى المجتمع القبلى التونسى كانت تعبر عن الهمجية والتسيب شأنها فى ذلك شأن التوحش لدى القبائل "الإفريقية" و"الأسترالية"؟

إذا كانت البداوة فى المجتمع الريفى التونسى انكاسا للمفهوم الشائع والمطلق للمصطلح عندئذ لا جدوى من الحديث عن الخصوصية التاريخية والثقافية للمجتمع. فيصبح تاريخ البلاد كله هيجانا قبليا مقننا. ويبقى الإنسان فى هذا المجال قبليا بطبعه. وعلى هذا الأساس تفقد الصراعات الاجتماعية مضمونها، ويصبح المنحى النزاعى العنيف بين العشائر والقبائل أو بين المركز والأطراف هو قاعدة الانتظام الداخلى بين مختلف الوحدات الاجتماعية.

وإذا كانت البداوة مرحلة سابقة على الدولة، فمباذا نفسر سيرورة القبيلة "الخلدونية" نحو الملك؟ وما هى أبعاد الانتفاضة والثورة فى تاريخ البلاد؟ لا سيما انتفاضة القبائل التونسية سنة ١٨٦٤ والتى كانت بحق تجسيدا لواقع القبيلة التونسية وخصوصيتها الثقافية والحضارية. فقد نظر إليها "المخزن على

أنها فساد وفوضى ووضعها القائمون بأعبائها تحت عنوان النهى عن المنكر واعتبرها الملاحظون الفرنسيون كبرهان على إفلاس الحركة الإصلاحية[١].

فما حقيقة هذه الثورة؟؟

* ما هو موقع التمايز الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى سلكته الدولة "المخزنية"[٢] إزاء المجتمع المحلى؟ أليس هذا الخلف الداخلى هو الذى عمق من ثنائية العامة/ الخاصة أو الريف/ المدن؟ وقوى من الفصام المعلن بين الدولة والمجتمع؟

ألسنا بصدد مجتمع مجزأ لا يتبنى سوى "إيديولوجيا انقسامية"[٣] لا تعبر إلا عن خيارات وبدائل تسعى إليها الأطراف المتنازعة؟

* إذا كانت الخصوصيات التاريخية للمجتمع التونسى فى القرن التاسع عشر تجسيدا للركود الاجتماعى واللاحركية، فإن الحداثة تصبح لحظة

---

١ - توفيق البشروش: ربيع العربان أضواء على أسباب ثورة على بن غذاهم سنة ١٩٦٤ بيت الحكمة - قرطاج - ١٩٩١ ص ١٦.

٢ - بلاد المخزن هى التى تقبل فيها الرعايا تقويض حكم وسلطة إدارتهم العليا للسلطان وهى خلاف لبلاد السيبة التى تتشبث بسلطة إدارتها الذاتية ولا تعترف بسلطة المركز. الدولة المخزنية هى التى تنصب المخزن كمرجع ضرورى لازم لولاء الناس أو عدائهم.
انظر - د. مصطفى الكثيرى: الخصوصية التاريخية والحضارية لبلدان المغرب العربى ومدى انعكاساتها على التنمية الإدارية. المنظمة العربية للعلوم الإدارية. الأردن ١٨٦٩ ص ٤٢.

٣ - يقول ابن أبى الضياف: "وانقسمت الإيالة فى المعنى إلى إيالتين تستبيح إحداها الأخرى. ونقل عن بعض الهمامة أن ذلك بإذن من الباى فى السر وإنما بتذكار الحسائف القديمة حل عقدة القوم التى أحكمت ربطها يد الطبيعة. الإتحاف ٥/ ٢١١.

obeikandl.com

هيمنة وتفوق من خـصوصيات الآخر "الأوروبى" مجتـمع الحركية التضامـن العضوى[١] فهل أن التقليدى والـتراث المحلى لا يتضامن من الحركية والنشاط ما تتضمنه عملية التقدم؟

وإلى أى حد ترادفـت إصلاحيـات البايات فى القـرن التاسع عـشر من حقيقة التخلف الاجتماعى والاقتصادى؟ وما هى نتائج سياسية التحديث على المجتمع والدولة؟

❊ ❊ ❊

١ – إميل دور كاييـم هو أول من استعمل مفـهوم الانقسامـية لدراسة المجتمـعات وتطورها. وتتمحور أطروحة حول فكرة أساسية مفادها أن المجتمعات تنتقل تدريجيا عبر التاريخ من أشكال التضامن الآلى إلى أشكال التضامن العضـوى. أى من تضامن يؤسسه التشابه بين العناصر المكونة للمجتـمع إلى تضامن يفرضه الاختلاف نتيجـة تقسيم العمل. إن أشكال التضامـن العضوى هى التى تسود أوروبا المعـاصرة. أما مجـتمعات التضـامن الآلى فإن نموذجها العشائر البدائية الذين تجمعهم وحدة الدم المشترك وغياب أى رابطة سياسية.

انظر: Emile Durkeim: de la division du travail social (1893) Paris P. U. F. 1973. P. 150

obeikandl.com

بالنسبة إلى المخطط التحليلى للرسالة:

- قسمت البحث إلى مـدخل تمهيدى (التوطئة والمقدمـة العامة) وأربعة أبواب، وكل باب يحـتوى على فـصول. كـما يتـفرع الفـصل إلى محاور وقد حرصت على تنظيم الأبواب وفق منهج تدريجى متكامل ومترابط.
- اعتـمدت فى هذا البحث طريقة المـنهج الاستقرائى. حـيث ضمنت الباب الأول نموذجا انطلـقت من مختلف ملابساته لتـحليل المباحث الأخرى. ومـحتـوى هذا النموذج هو "ثورة العـربان" سنة ١٨٦٤ واختـيارى لهذا الحـدث الاجتمـاعى والسياسى تبـرره ندرة المباحث المهتمـة به من جهة وأهميـة الصراعات الاجتمـاعية والسيـاسية فى الكشف عن الحقـائق التاريخية من جـهة أخرى لا سيمـا وقد شكل الحدث مركزا استقطاب الأطراف الداخليـة والخارجية. بالإضافة إلى ذلك" ولكى نفهم مشكلة الاستمرارية والتـغيير فى السلوك الجماعى للجمـاعات الاجتمـاعية وفى العـلاقات بينها من الضـرورى دراسة التـوترات والتناقضـات التى تعمـل على تحريك نظام القـيم والبعـد الثقافى لكل جماعة[1].

1 - عبـد القادر الزغل: المدارس الغربـية والهيـاكل الاجتمـاعية فى الشـرق الأوسط. مجلة المستقبل العربى - بيروت عدد ٣٧ مارس ١٩٨٢ ص ٥٠.

الباب الأول: طبيعة حراك المجتمع من خلال النص (نموذج ثورة العربان).

الفصل الأول: أبعاد الثورة والانتفاضة فى تاريخ البلاد.

تعرضت فى هذا الفصل إلى طبيعة الثورة انطلاقا من عصر الولاة إلى العهد العثمانى وتحديدا العهد الحسينى مبرزا الدوافع المختلفة والأهداف التى كانت تقود حركات التمرد آنذاك، وذلك لمعرفة مميزات الحراك الاجتماعى والسياسى فى هذه المراحل التاريخية وكيف علل الكاتب مختلف هذه التوترات وأبعادها.

الفصل الثانى: الخاصيات النموذجية لثورة ١٨٦٤ (الثابت والمتحول)

أين تبدو مظاهر الاستمرار وكيف تجلت القطائع بين السابق واللاحق؟

سأبين فى الفصل أبعاد التمرد الشعبى فى القرن التاسع عشر. هل هى أبعاد مذهبية – دينية أم اجتماعية وسياسية؟

كذلك سأبين طبيعة الحراك فى هذه الثورة – فهل هو حراك أفقى يبحث عن توازنه المفقود داخل النسق الاجتماعى والسياسى؟ أم حراك عمودى تراتبى يريد تغيير المراكز؟

عموما سأقوم فى هذا المبحث برصد التحولات الجديدة الطارئة على الفكر الاجتماعى وذلك من خلال قراءة المضمون "السوسيولوجى" لخطاب الثورة وأهدافها؟

الباب الثانى: مراكز الحركة والاستقطاب فى المجتمع (من خلال تفاعلات النموذج)

- الفصل الأول: البنى السياسية والاجتماعية

- الفصل الثانى: المجتمع المحلى والشرعية السياسية

- الفصل الثالث: الرموز الثقافية والدينية

أقصد بمراكز الحركة والاستقطاب الآليات المحركة والفاعلة التى كانت تستقطب اهتمام مختلف الشرائح الاجتماعية. فثورة العربان كشفت لنا عن أدوار مهمة اضطلعت بها الطريقة والقبلية والمدينة وبينت لنا العلاقة الجدلية الهامة التى كانت تربط مختلف البنى السياسية والاجتماعية.

وبعد بيان الخصوصيات التاريخية سأبين المضامين والأدوار والمواقع المختلفة للبنى السياسية والاجتماعية وعلاقاتها بالرموز المذكورة مثل موقع الزاوية فى الحقل الدينى والسياسى وإضفاؤها الشرعية على القبيلة من جهة وتكريسها لمشروعية المخزن من جهة أخرى. ثم ذكر "استراتيجية" الدولة فى تعاملها مع هذه الرموز المختلفة...

الباب الثالث: النص والمجتمع والمقارنات الفكرية

- الفصل الأول: المسألة السياسية ومستوى الوعى عند الكاتب

- الفصل الثانى: الحراك الاجتماعى فى خطاب النص (الثابت والمتحول)

- الفصل الثالث: النص والمقاربات "السوسيولوجية".

بالنسبة للفصل الأول والثانى سأبين فيهما نقاط الالتقاء والافتراق بين

خطاب الكاتب وبين حقيقة الواقع السائد، بين الفكرية وملابسات الظرف. أى متى يكون الخطاب واعيا ومعقولا فى تقييم الأحداث السياسية والاجتماعية؟ ومتى يكون لا واعيا ومتعاليا عن ظرفيته وشروطه التاريخية؟ لا سيما وتقليدية الفكر فى القرن التاسع سرعان ما يلتبس عندها المفهوم بالممارسة لازدواجية الوعى بين المرجع الثقافى والمستجد الحضارى.

إذن أين يلتقى الخطاب بالواقع وكيف تفترق الذات عن الموضوع؟

وما مدى معقولية النص فى تحليل الواقع ونقده؟

عموما هذا المحور يعتبر قراءة فى خطاب النص وتقييم لمواقف الكاتب ورصد لتناقضاته لا سيما ومواقفه لم تكن على وتيرة واحدة حيث تتراوح بين المد والجزر، بين الثبوت والتحول، بين الاتهام والمدافعة. إذن ما هو الثابت والمتحول فى فكر الكاتب؟

أما الفصل الثالث فقد خصصته لرصد ديناميات البنى الاجتماعية والسياسية من خلال الطرح الخلدونى والمقاربات الاجتماعية الحديثة والمعاصرة والتى استأثرت بدراسة التاريخ الاجتماعى والسياسى للبلاد انطلاقا من تصنيفات ومعايير "إيديولوجية" (الانقسامية) استنقصت كثيرا من حركية المجتمع واعتبرته ضمن المجتمعات الساكنة واللامتحركة.

ونقاط الالتقاء فى هذا المحور تتمثل فى المقاربات الموضوعية التى تعبر عن الخصوصية. أما نقاط الافتراق فهى الأطروحات المغالية المسقطة والمعممة التى لا تلتقى مع خصوصية الذات وتاريخها.

ترى إلى أى حد يلتقى خطاب الكاتب مع الطرح الخلدونى ويفترق عنه؟

وهل تلتقى المقاربات الاجتماعية مع منطق النص وخصوصية المجتمع أم تفترق عنه؟

الباب الرابع: النص والحداثة والمجتمع

الفصل الأول: هاجس الحداثة وازدواجية الوعى

الفصل الثانى: المفهوم بين التأويل والمماثلة الصعبة

الفصل الثالث: المجتمع وسياسة التحديث

فى هذا المبحث الأخير أردت أن أبين أثر مقولة الحداثة بأبعادها النظرية والعملية على فكر النخبة العالمة فى القرن التاسع عشر وانعكاستها على الوعى التقليدى مبررا أن "التقليد" فى المجتمع التونسى يتضمن من الحركية والنشاط ما تتضمنه عملية التقدم. والمعاصرة لا تقتضى نفى التقليدى لأن فى نفيه نفى لسيرورة الذات ووقوع فى تقليد آخر. إنما تجدد التقليد يكون بإعادة تأويله حسب متطليات ظروف العصر. كذلك فالتغيير فى تاريخنا وثقافتنا لم يكن أبدا خارج نسقه المعرفى. فسياسة التحديث فى عهد البايات مثلا لم تساهم إلا فى تعميق الهوة بين الفئات الاجتماعية خاصة المدن والأرياف. فإصلاحات البايات لم تترادف مع حقيقة التخلف الاجتماعى والاقتصادى ولم تلتق بواقع العامة بقدر تماثلها مع الخاصة والتقائها مع "الإيديولوجيا الرأسمالية الأوروبية".